هل ..

أسهم ابن خلدون في تأسيس علم النفس . ؟

بقلم الدكتور عبد الرحمن عيسوى

فضل العرب على الحضارة الغربية :

لقد أسهم العلماء العرب فى شتى ألوان المعرفة المعروفة فى زمانهم ، ووضعوا أسس كثير من العلوم الحديثة . وكانت جهود العرب وأعمالهم الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة ، فليس صحيحا ما يقال على لسان بعض المستشرقين من ان العرب مجرد نقلة للتراث اليونانى ، وإنما الواقع - كما يشهد كثير من المنصفين من المستشرقين - أنهم ضربوا بسهم وافر فى العلوم الطبيعية والرياضية والطبية والفلسفية إلى جانب علوم القرآن والفقه والحديث ، فالعقلية العربية عقلية مبتكرة خلاقة وليست فقط عقلية تحليلية . ومن الأدلة على تأثير العرب فى الحضارة الغربية ان كتبهم ظلت تدرس فى الجامعات الاوربية حتى القرن السابع عشر .

وبالنسبة للعلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون يقال - بحق - إنه واضع أساس علم الاجتماع الحديث وليس اوجيست كونت كما يزعم علماء الغرب .

وفى هذا المجال محاولة لالقاء الضوء على الحقائق النفسية التى أدركها فكر ابن خلدون ، ومحاولة للتحقق من مدى إسهام ابن خلدون فى علم النفس فنتساءل هنا هل يعد ابن خلدون مؤسس علم النفس الحديث كما هو مؤسس علم الاجتماع ؟ من خلال تحليل مقدمته سنرى ما الذى يمكن أن يستخلصه القارىء بالنظرة السيكولوجية الحديثة .

○ نشأته وحياته ○

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ولد فى تونس (١٣٣٢ هـ - ١٤٠٦م) ويعتبر مؤرخا وفيلسوفا وسياسيا ماهرا . درس المنطق والفلسفة والفقة والتاريخ ولقد عينه ابو عنان سلطان تونس واليا على الكتابة . وسافر الى الأندلس فانتدبه ابن الأحمر

صاحب غرناطة سفيرا الى ملك قشتالة . ورحل الى مصر ودرس فى الازهر الشريف وتولى قضاء المالكية حتى وفاته . ولما حاصر تيمور لنك دمشق قصده ابن خلدون راجيا إنقاذ المدينة ، لكنه أخفق . وابن خلدون عالم دقيق الملاحظة ، راجح الفكر بعيد النظر فى أحكامه التاريخية . ألف فى فلسفة الاجتماع وفى فلسفة التاريخ كثيرا من الكتب لم يصلنا من انتاجه سوى مقدمة كتاب العبر المشهور بمقدمة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر وقيل عن مقدمته إنها خزانة علوم اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية (١) وفيما يلى آراؤه النفسية ومقابلاتها الحديثة .

○ نزعته العلمية والموضوعية ○

كان ابن خلدون يدين بما نسميه اليوم بالموضوعية فى البحث العلمي «التاريخى ويستبعد أثر العوامل الذاتية» ، فهو يدعو المؤرخ لتحري الحقيقة فى الخبر التاريخى مشيرا إلى ضرورة تخلصه من التشيع أو التعصب .. ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه ،

واذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقه من الاخبار لأول وهله ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الخطأ ونقله » (٢)
والموضوعية من سمات العلم الحديث بما فى ذلك علم النفس (٣)

يلوح ان ابن خلدون كان يقبل وجود السحر والطلسمات والحسد ، ولكنه كان يرى أن السحر محرم ، وأن الساحر شخص شرير لايفعل الخير ، وان السحر يضر بالبشر .

أما الحسد فيقول «من قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين ، وهو تأثير من

نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات او الاحوال ، ويفرط فى استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به ، فيؤثر فساده (٤) فلا يؤيد السحر ولا التنجيم ويفسر الحسد تفسيرا معقولا والحسد فى الفكر السيكولوجى الحديث عبارة عن انفعال ناتج عن حرمان الحاسد .

○ أثر البيئة فى نمو الفرد ○

تدل كتابات **ابن خلدون** على أنه كان يناصر قضية البيئة وتأثيرها فى شخصية الانسان يقول «لاشك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى ، ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف . ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لاتدرك مثل أنهم يعلمون الحمير .. مفردات من الكلام والأفعال .. وحسن (٥) الملكات فى التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء فى عقله وإضاءة فى فكره ، والغريب أن نلمس تلك الشمولية فى الفكر الخلدونى فنجده لايقصر التأثير فى العقل على التعليم وحده.وإنما المهن والحرف وشتى مناشط الحياة ومجالات احتكام الفرد مع الحياة العادية والتفاعل واياها والمحاكاة والتقليد ثم يقول إن النفس إنما تنشأ بالادراكات ومعنى هذا ان النفس تتكون عن طريق إدراك حقائق العالم الخارجى المحيط بنا من أناس وأشياء . وهذه نظرة تتفق مع وجهة النظر الحديثة . ويؤكد أن الاختلاف الملاحظ فى سلوك البدوى والحضرى لايرجع إلى اختلاف الطبيعة الانسانية عند كل منهما ، وانما يرجع الى اتقان الملكات والصنائع والآداب والعوائد والأحوال الحضرية مما لايتوفر للبدوى (٦) . ولكنه لاينقص عنه شيء فى جبلته أو بفطرته ، وبالمثل لايرجع تأخر أهل المغرب العربى عن أهل المشرق الى طبيعتهم الانسانية وإنما الى ظروفهم البيئية ولعل **ابن خلدون** فى هذه المساواة فى الطبيعة الانسانية يسمو بفكره فوق

بعض النزعات الحديثه التى كانت ولايزال بعضها يرى أن الجنس الابيض أو أن الجنس الألمانى مثلا يفوق غيره من الأجناس الأخرى ، ومن ثم يحق له ان يتسلط على بقية الأجناس . ولقد أثبت العلم الحديث بطلان فكرة تفوق أى جنس من الأجناس وانما الانسان هو واحد فى كل زمان ومكان اما الاختلاف فيرجع الى اختلاف الظروف الثقافية ومايوجد فى بيئة الفرد من فقر معرفى او غنى من حرية او عبودية من تعليم او جهل .. الخ .

حقا ان المتأمل فى فكر ابن خلدون يلمس انه كان يؤمن بأثر العوامل البيئية فى شخصية الفرد ، فهو يفرد فصلا فى مقدمته يتحدث فيه عن تأثير العوامل الطبيعية فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم . فالاقاليم المعتدلة وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا .

كما يخصص فصلا عن (**أثر الهواء فى اخلاق البشر**) ويرى ان حالة الحرارة والرطوبة تسبب الشعور بالفرح والسرور ومما يؤكد إيمانه باثر البيئة قوله باختلاف احوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم .. والمعروف حديثا أن ظروف الحرارة والرطوبة والبرودة والتهوية وما الى ذلك تؤثر فى الروح المعنوية للافراد .(٧)

ويرى أن للتغذية دورا أساسيا فى تكوين طباع البشر وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من أهل القفار احسن حالا فى جسومهم وأخلاقهم من اهـل التلـول المنغمسين فى العيش ، فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى واشكالهم اتم واحسن واخلاقهم أبعد من الانحراف واذهانهم أثقب فى المعارف والادراكات . (٨)

ويرى أن السبب فى ذلك هو أن كثرة الاغذية ورطوباتها تولد فى الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد اقطارها فى غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ، ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم . وتغطى الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجىء البلادة والغفلة والانحراف .

والمعروف حديثا ان كثرة تناول اللحوم من عادات الطعام السيئة وان التغذية الجيدة تساعد على النمو الجسمى السليم للطفل . وان حالة الشبع الزائد تؤدى الى الكسل والتراخى وقلة الانتاج . (٩) .

○ إيمانه بفكرة التخصص المهنى والعلمى ○

كان ابن خلدون يؤمن بما نعرفه الآن بفكرة التخصص المهنى فيقول (من حصلت له ملكة فى صناعة فقلّ أن يجيد بعدها ملكة اخرى (١٠)) ويرجع ذلك الى ان الملكات من صفات النفس أو العقل . ثم يشير الى فكرة الاستعداد العقلى أو المهنى الذى نعرفه اليوم فيقول (ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات) ويقصد بذلك أن الاستعدادات الفطرية أو الوراثية تساعد على اكتساب المعارف واتقان المهن . وهذه من المبادىء الحديثة التى نتوخاها فى التوجيه المهنى والتربوى للأفراد بحيث يوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب بحسب ماتسمح به قدراته واستعداداته وميوله وسمات شخصيته وخبراته المختلفة ويرى أنه من الصعب على الفرد أن يتفوق فى مجال تخصص معين ثم التفوق فى مجال آخر ويصدق هذا فى نظره على المهن كالنجارة والبناء كما يصدق على المعارف والعلوم . ويتحدث ابن خلدون عن بعض الصناعات كالفلاحة والبناء والطب والنجارة والخياطة والتوليد . ويشبه هذا اهتمامنا فى الوقت الحاضر بالتعليم المهنى الفنى . وليس فى كلامه مايشير الى امتهان مثل هذه الأعمال أو احتقارها وهى من الأفكار التى مازلنا نحتاج اليها الآن .

* * *

التغذية والطب

اهتم ابن خلدون بفكرة التغذية وإدراك أثر الغذاء على الصحة « واعلم أن اصل الامراض كلها إنما هو من الاغذية » كما قال ﷺ فى الحديث الجامع للطب .. المعدة بيت الداء والحمية (الجوع) رأس الدواء واصل كل داء البردة اى ادخال الطعام على الطعام فى المعدة قبل ان يهضم ثم يشرح دورة الغذاء وتمثيله فى المعدة وتحويله الى دم بطريقة لاتختلف كثيرا عما يحدثنا به العلم الحديث اليوم (١١) . ويتحدث عن بعض العادات الصحية وأثرها على الصحة فيقول : « ان انعدام النشاط الرياضى عند أهل الامصار ، حيث انهم وادعون ساكنون لاتأخذ منهم الرياضه شيئا ولا تؤثر فيهم أثرا فكان وقوع الامراض كثيرا فى المدن والامصار » (١٢) ولذلك كان يرى أن اهل المدن اكثر عرضة للمرض من أهل البادية ، وأن الطعام البسيط الخالى من التوابل اكثر صحة ، وكذلك الرياضه وركوب الخيل والصيد . ويشبه هذا الموقف مايذهب اليه البعض الآن من اعتبار كثير من الامراض التى نعانى منها الآن وليدة الحضارة والمدنية الحديثة المعقدة ، وهكذا فقد أدرك ابن خلدون أن حياة البادية بما فيها من هواء وبساطة وسهوله اكثر جلبا للصحة من حياة الحاضرة .

التدريب

المتأمل فى فكر ابن خلدون يلحظ انه ادرك أهمية مانسميه اليوم بالتدريب لابراز المواهب وتنمية القدرات ، ولذلك فقد أفرد فصلا فى « أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب » وفى شرح ذلك يقول : « ان النفس الناطقة (**العقل**) موجودة فى الانسان وجودا بالقوة بالمعنى الارسطى ، وانها تخرج من القوة الى الوجود وبالفعل عن طريق تجديد العلوم والادراكات والحنكة فى التجربة والصناعة والحضارة والآداب والدين

فالكتابة والحساب تنميان الخيال والعقل .

وتتضمن هذه الفكرة فكرة حديثة أخرى هى انتقال أثر التدريب فى التعليم الحديث حيث يستفيد المتعلم من خبراته السابقة فى تعلم الأمور الجديدة المشابهة للخبرة القديمة

○ مفهوم الطبيعة الانسانية ○

يقول إن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء .. وإنما تميز عنها بالفكر « فالانسان يمتاز عن الحيوان بقدرته على التفكير والاستفادة من الخبرات ومن المعارف والتعاون مع بنى جنسه والاجتماع بهم وقبول الأديان .. ونتيجة لفكر الانسان الذى لايتوقف برهة ، تنشأ العلوم والصنائع . ويرى ابن خلدون أن فكر الانسان ينزع بالطبيعة وبالفطرة إلى تحصيل ماليس عنده من الادراكات ، فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة . ويشبه هذا الميل مايتحدث عنه علماء النفس المحدثون من الدافع نحو حب الاستطلاع والرغبة الطبيعية فى البحث والتنقيب والاستكشاف وارتياد مجاهل الطبيعة وسبر أغوار الاشياء وكان يرى أن العلم والتعليم طبيعى فى المجتمع البشرى تتشوف نفوس أهل الجيل الناشىء الى تحصيل ذلك فيفزعون الى أهل معرفته » (١٤)

○ الفروق الفردية ○

فى حديثه عن التعليم يدرك **ابن خلدون** أن هناك مانسميه الآن بالفروق الفرديه فى المستويات العلمية وهذه الملكة هى فى غير الفهم والوعى لانجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن وبين من هو مبتدىء فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير ، والملكة إنما هى للعالم أو الشادى فى

الفنون دون من سواها فالناس ليسوا سواسية فى كم وكيف مايمتلكون من قدرات واستعدادات وميول وخبرات .

○ اختلاف طرائق التدريس ○

لقد أشار **ابن خلدون** إلى أن العلم أو الحقيقه وان كانت واحدة الا أن العلماء يختلفون فى طرق تدريسها أو تعليمها لأتباعهم ، وأن لكل منهم اصطلاحاته ، ان تعليم العلم صناعة ، لاختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به وهى نفس الفكرة المعاصرة من وجود العديد من طرائق التدريس .

○ الانفعالات ○

يتحدث **ابن خلدون** فى فصل عن التصوف وأحواله : فيصف بعض الحالات التى تندرج الآن تحت اسم الانفعالات منها الفرح والحزن والقبض والبسط والغضب والرضا والعبد والشكر ، كما يتكلم عن الخواطر النفسانية كما يتحدث عن مجاهدة النفس ومحاسبتها والورع (١٥)

○ تفسير الاحلام ○

يخصص ابن خلدون فصلا لما سماه (**علم تعبير الرؤيا**) ويرى أن الرؤيا موجودة فى صنف البشر على الاطلاق . وان تعبيرها او تفسيرها مهم . وأن الرؤيا من (**مدارك الغيب**) وكان يرى أن النوم عبارة عن تعطيل حواس الانسان ، وهى نفس الفكرة التى

نصف بها النوم فى أيامنا هذه . فالنوم عبارة عن انخفاض فى مستوى العينات الحسية للنائم ، أى ضعف استقبال المثيرات الخارجية . فأنت عند ما تنادى النائم بصوت خفيض فلا يسمعك لان حواس الاستقبال عنده ضعيفه ويفسر الرؤيا بأنها ناتجة عن تجرد الانسان من الشواغل الحسية أثناء النوم ، ولذلك ينصرف قلبه الى إدراك الحقائق الغيبية . ويفرق ابن خلدون بين الرؤيا وبين أضغاث الاحلام الكاذبه ، فالرؤيا تنزل من الروح العقلى المدرك ، اما اضغاث الاحلام فهى الصور المأخوذه من الحافظة او الذاكرة فى اثناء اليقظه ، كذلك أدرك ابن خلدون أن للاحلام معان رمزيه يصورها الخيال فالسلطان يراه النائم كالبحر والعدو يراه حية لعظم ضررها والأوانى تشبه بالنساء لأنهن أوعيه . هذه الرمزية فى الاحلام يقرها العلم الحديث ويؤكد أن الاحلام تعبير رمزى ، وأن هذه الرموز تشتق من حضارة الانسان ويميز ابن خلدون كما يميز علماء النفس اليوم بين الحلم الواضح الصريح الذى لايفتقر الى تعبير وبين الحلم الغامض .

وعلى الرغم من أن هناك رموزا للأحلام إلا أن ابن خلدون يرى أن تفسير الرؤيا يختلف باختلاف الحالات الفردية ، ويتوقف على القرائن والملابسات والظروف الفرديه لصاحب الرؤيا ولذلك فهو يحذر المفسر من التعميم ، فالبحر قد يدل على السلطان ولكنه فى موضع آخر قد يدل على الغيظ أو السهم ، والحية تدل على العدو وفى موضع آخر تدل على كاتم الاسرار أو على الحياة . ومازال هذا الاتجاه فى تفسير الاحلام سائدا . فتفسير حلم مريض معين يختلف عن تفسير نفس الحلم عند مريض آخر (١٦)

○ الامراض العقلية ○

فى حديث ابن خلدون عن علم الطب لايذكر شيئا عن الامراض العقلية او النفسية او الطب العقلى وانما يدرك دور الايماء فى الشفاء وذلك عن طريق الايمان وصدق العقيدة .

○ مراعاة مستوى عقل المتعلم واستعداداته ○

يرى ابن خلدون أن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل وان كثرة التأليف فى العلم تضر بالناس وتجعل من الصعب الوقوف على غاياته ، وان اختلاف طرائق التدريس ومصطلحات التعليم تجعل التلميذ يقضى عمره دون ان يفى بما كتب فى صناعة واحدة ويضرب لذلك مثلا بما كتب فى المذهب المالكي . فالكتب متكرره والمعنى واحد (١٧) . ولو اقتصر المعلمون على تعليم المذاهب فقط لكان التعليم سهلا ، وينادى بعدم مطالبة المتعلم بما هو فوق طاقته وبما يفوق عمره .

ونحن الآن ننادى بعدم حشو ذهن التلميذ بالكثير من المعلومات المحدودة ولكن ابن خلدون ينادى بمبدأ آخر من المبادىء التربوية الحديثة وهو أن كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم التى تحشى بالمعانى الكثيرة وفى هذا عسر فى الفهم وإخلال بالبلاغه ، وهذا فساد فى التعليم وإخلال فى التحصيل لضرورة تتبع ألفاظ الاختصار العويصة ويفضل الموضوعات البسيطة المطولة . وتشبه هذه الدعوة حركة محاربة رجال التربية فى العصر الحديث للمختصرات والملخصات المخلة بالعلم والمعرفة . كما فى هذا اشارة لنكرة اللفظية .

التى هى من عيوب التربية التقليدية التى تعمد الى حشو اذهان التلاميذ بالمصطلحات والألفاظ التى لايدركون معناها ومغزاها ومدلولها وتعبيرا عن ايمانه بالاستعدادات ، يقول : كل ميسر لما خلق له . فلكل فرد قدرة على التفوق فى علم معين دون غيره (١٨)

○ مبدأ التدرج فى التعليم ○

من المبادىء الهامة التى ينادى بها ابن خلدون مبدأ التدرج فى تعليم التلميذ والانتقال به تدريجيا من موضوع الى آخر (**اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا اذا**

كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا) .

○ الطريقة الكلية فى الاستذكار ○

يرى ابن خلدون أن المتعلم يجب أن يلقى عليه مسائل من كل باب من الفن من أصول أو مبادىء ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده .. ثم يرجع به الى الفن ثانية ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج من الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ، ثم يرجع به ثالثة فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضحه وفى هذا إدراك لفكرة الانتقال بالمتعلم من الاجمال الى التفصيل من الكل الى الجزء ومن العام الى الخاص . وهى فكرة من الأفكار التى نادت بها مدرسة الجشطالت فى علم النفس الحديث حين رأت أن الادراك الحسى ينتقل من العام الى الخاص أو من الكل العام المبهم الى التفاصيل والدقائق والجزئيات ، فأول مايدرك الفرد يدرك الاشياء بشكل كلى إجمالى .

كذلك يدرك ابن خلدون فكرة التكرار فى التعلم وهى من المبادىء الحديثه أيضا حيث افرد لها ادوارد ثورنديك قانونا خاصا سماه (قانون التكرار) ويرى أن التعلم يتم فى ثلاث مراحل من (التكرارات) وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك وفى ذلك مراعاة للفروق الفردية بين المتعلمين .

وينتقد ابن خلدون أساليب التعليم المنتشرة فى عهده (وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى ادركناه يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون المتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفله من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات

الفنون فى مباديها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات له تنشأ تدريجيا (١٩)

وهنا نلمس حرصه على مراعاة قدرة المتعلم ونضوجه الذهنى وهى الفكرة التى نادى بها جيزل فى العصر الحديث حين دعا لضرورة التلازم فى تعليم الطفل بين النضج والتدريب فلا نتعجل النمو ونطالب بمالا طاقة له به ولا نهمله كلية فتضيع فرصة التعليم وهكذا نرى أن ابن خلدون له فضل السبق فى هذه النظرية على جيزل .

وهنا نلمس أيضا إدراك عبقرية الفيلسوف العربى (ابن خلدون) لمبدأ من المبادىء التعليمية الهامة وهو عدم البدء مع المتعلم بالأمور الصعبة وانما لابد من التدرج من السهل الى الصعب أو مما يعرفه المتعلم الى مايجهله وفى ذلك تشويق للمتعلم وحفز لفهمه وإثارة لاهتمامه .

○ الأمثال الحسية ○

ومن المبادىء التعليمية الهامة التى أدركها ابن خلدون مناداته بتوضيح الدروس بالاستعانة بالأمثلة الحسية ، ويشبه هذه الاستعانة بالوسائل السمعية والبصرية المعينة على التدريس فى وقتنا الحاضر .

ويقول أيضا:إننا اذا بدأنا التعليم باعطاء المتعلم غايات العلم فى أول الأمر أدى ذلك الى كلل ذهنه والى تكاسله والبعد عن قبوله وإلى هجرانه . اى النفور من العلم وكراهيته وليس ذلك من سوء العلم نفسه وإنما من خطأ المعلم . فالتعلم انما يكون بحسب طاقة المتعلم وقدرته .

وينادى ابن خلدون بالترتيب والنظام فى التدريس فلا يخلط المعلم مسائل كتاب بمسائل غيرها حتى ينتهى منه المتعلم .

○ انتقال اثر التدريب السلبى والايجابى ○

يشير ابن خلدون إلى إمكان مانسميه اليوم بانتقال أثر التدريب ، فاذا ألم المتعلم بمسائل كتاب معين يستولى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره ، لأن المتعلم إذا حصّل ملكة مافى علم من العلوم استعد بها لقبول مابقى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض الى مافوق (٢٠) لقد كان لابن خلدون فضل السبق على كثير من علماء النفس التعليمي المحدثين فى إدراك مانسميه (**بالاثر السلبى للتدريب**) حين يعوق تعليم مادة معينة تعليم مادة اخرى بعيدة عنها ولذلك يقول (**ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم الا يخلط على المتعلم علمان معا ، حينئذ قل ان يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الاخر فيستغلقان معا ويستعصيان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصر عليه فربما كان ذلك اجدر بتحصيله ..)** (٢١)

والمعروف حديثا ان انتقال اثر التدريب من مادة إلى اخرى لايتم إلا بمقدار مايوجد بين الاثنين من عناصر .

○ فكرة الاستمرارية أو الممارسة ○

يرى **ابن خلدون** عدم تقطيع مجالس الدروس والتباعد بينها حتى لايتعرض المتعلم للنسيان ، لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه . وارتباط العلم بالممارسة والتكرار وكذلك استمرارية تحصيل العلم واتصالها من المبادىء التعليمية الناجحة والممارسة تعصم من النسيان .

فتعليم الجمع والطرح يفيد في تعليم القسمة لأن العملية الاخيرة تتضمن عناصر من

العمليتين الأوليين .

ومن الأمور التى تساعد المتعلم على التفكير المنطق الذى يوضح صحة الفكر أو فساده ، ثم معرفة الالفاظ ودلالتها على المعانى لاحكام الاستدلال والوصول إلى المعانى المجردة .

○ الإلهام أو الاشراق ○

فى عملية الابداع تهبط الفكرة على ذهن المبدع دفعة واحدة كما لو كانت وحيا أو إلهاما وابن خلدون يعى هذه الحقيقة الفكرية ..(إن الجدال وكثرة المناقشات قد تسبب الخلط فى الذهن والارتباك فى الفهم فاترك ذلك كله واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعى .. مستعرضا للفتح من الله .. فاذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك

فاذا حصلت هذه المعرفه ترجع لتضعها فى قوالب الأدلة وصورها وضعها فى القانون الصناعى .. ومن ثم اكسه صور الالفاظ وابرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان) .

وتشبه هذه العملية عملية التحقيق أو التحقق التجريبى واصدار الاحكام النهائية فى عملية التفكير كما توصف فى العصر الحديث .

وينادى بتجريد الفكر من جميع الأوهام .. واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام إلى الصواب (٢٢)

○ التعليم فى الصغر ○

يرى ابن خلدون أن التعليم فى الصغر يكون أشد رسوخا وأنه أصل لما بعده ، ولذلك كان تعليم القرآن الكريم أول مايتعلمه الصبى العربى لرسوخ الايمان والعقائد (٢٣)

لابن خلدون نظرية متقدمة فى تحريك استخدام القسوه والشدة والقهر والقسر مع المتعلم تفوق آراء كثير من رجال التربية وعلم النفس حتى فى عصرنا الحاضر ، ففى فصل عن (**أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم**) يقول (إن ارهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم سيانى أصاغر الولد لأنه من سوء الملكه ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطابه القهر وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسف وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير مافى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة) .

وهذه من المبادىء النفسية الحديثة إذ المعروف أن التعلم يتم عن طريق تعزيز اومكافأة الاستجابات المرضية ، وعبر عن ذلك ايفان باقلوف عالم الفسيولوجيا الروسى فيما أسماه بالتعزيز ، وعبر عنه ادوارد ثورنديك فيما سماه (**قانون الاثر**) ولقد سبقهما فى ذلك ابن خلدون بمئات السنين .

كذلك يلفت النظر الى مبدأ هام من المبادىء السيكولوجية ، وهو ان الشدة مع الطفل تدفعه إلى الكذب والخداع هروبا من العقاب الصارم والمعروف أن المعاملة القاسية تولد فى الطفل الشعور بكراهية المدرسة وبضعف الشخصية وانسحابها ، وأن الكذب يصبح عادة عند الطفل كما أن الشدة تفسد معانى الانسانية فى نفس الطفل وتقتل روح الشجاعة والحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، ويرى ان سوء أخلاق اليهود يرجع الى سوء نظم تعليمهم وتعرضهم للقسوة والشدة ولذلك **يصفهم** ابن خلدون بالتخابث والكيد .

ويوصى الآباء والمعلمين الا يستبدوا بولدهم فى التأديب . والمعروف سيكولوجيا أن لمعاملة الطفل ولعلاقته بالوالدين أثرا كبيرا فى صحته النفسية (٢٤)

علي ان ابن خلدون لاينكر العقاب كلية وانما المعتدل منه ، فلا ينبغى لمعلم الصبيان أن

يزيد فى ضربهم . ويستشهد بوصية الرشيد لمعلم ولده الامين . وطاعة التلميذ للمعلم واجبة ويجب أن يعلمه الأخبار والاشعار والسنن ويمنعه من الضحك فى غير موضعه ، مع استفادة المتعلم من المعلم دون أن يحزنه حتى لايموت ذهنه ولايسرف فى المسامحة أو التهاون ، ويستخدم اللين والتقرب من قلب الطفل فان رفضها عليه بالشدة والغلظة .

والعقاب السيكولوجى المعتدل من مبادىء التعليم الخلقى والمسلكى المرغوب حتى فى وقتنا هذا .

○ منزلة ابن خلدون فى الفكر السيكولوجى ○

بعد هذه المرحلة الطويلة عبر مقدمته والنظر إليها بالمنظار السيكولوجى الحديث نستطيع أن نجيب على التساؤل الوارد فى مستهل هذا البحث فنقول، إن ابن خلدون وإن كان قد أدرك وتوصل لكثير من المفاهيم السيكولوجيه الحديثه من حيث ايمانه باثر البيئة فى نمو الفرد وإدراكه للفروق الفردية ولفكرة الاستعداد العقلى ومراعاة مستوى نضج المتعلم واتصاف فكره بالموضوعية والدقة وإدراك قيمة التخصص فى المهد وفى العلوم وأثر التغذية على الصحة وعلى الأحوال المزاجية للأفراد وقيمة التدريب والتكرار والممارسة والمران ومفهومه الناضج عن الطبيعة الانسانية واكتشافه لدافع حب الاستطلاع وانتقائه لطرائق التدريس الرديئة ووصفه بعض الانفعالات ، وتفسير الأحلام بالرجوع إلى مدلولاتها الرمزية ، وظروف الحالم ، وتأييده للطريقه الكلية فى الاستظهار والاستعانة بالأمثلة المحسوسة وادراك امكانية انتقال أثر التدريب السلبى والايجابى ، والالهام أو الاشراق فى هبوط الأفكار إلى الذهن ، ورأيه فى العقاب والشدة والصرامة مع الطفل وفهمه لمضمون قانون الأثر أو التعزير .. الخ

نقول على الرغم من فضل السبق لابن خلدون فى هذه المجالات إلا أنه لايعد

واضع أسس علم النفس الحديث ذلك لأنه لم يتحدث عنه ضمن تصانيفه للعلوم المختلفة ولم يتحدث عن دوافع السلوك أو الامراض النفسية أو العقلية وطرائق علاجها وتشخيصها ولكن يبقى للفيلسوف الكبير فضل السبق فى كثير من المفاهيم السيكولوجية الحديثة وخضوع فكره لسمات العلم الحديث وتقديره لانسانية المتعلم والمحافظة على سعادته .

والواقع أن التراث العربى مملوء بالحقائق السيكولوجية التى أدركها العرب والتى تنسب خطأ لعلماء الغرب المحدثين .

لذلك كم نحن فى حاجة إلى إحياء هذا التراث وبعثه من جديد .

* * *

أريد رجالا يعملون بصدق وعلم واخلاص، حتى اذا أشكل علي أمر من الأمور، رجعت اليهم في حله، وعملت بمشورتهم فتكون ذمتي سالمة وتكون المسئولية عليهم وأريد الصراحة في القول..

«عبد العزيز آل سعود»

● الهوامش ●

١ ـ المنجد فى اللغة العربية والاعلام الطبعه ٢١ دار المشرق .
٢ ـ المقدمة ص ٢٨ بيروت .
٣ ـ راجع كتاب المؤلف القياس والتجريب فى علم النفس والتربية .
٤ ـ المقدمة ص ٣٩٨ .
٥ ـ المقدمة ص ٣٤٣ .
٦ ـ المقدمة ص ٦٥ .
٧ ـ المقدمة ص ٦٩ .
٨ ـ المقدمة ص ٧٠ .
٩ ـ راجع كتاب المؤلف علم النفس والانتاج .
١٠ ـ المقدمة ص ٣٢ .
١١ ـ راجع كتاب الباحث (علم النفس الفسيولوجى) باب سيكولوجية الغذاء .
١٢ ـ المقدمة ص ٣٣٠ .
١٣ ـ المقدمة ص ٣٤١ .
١٤ ـ راجع كتاب الباحث معالم علم النفس للوقوف على طبيعة الدوافع الانسانية للسلوك .
١٥ ـ راجع كتاب الباحث علم النفس ومشكلات الفرد .
١٦ ـ راجع كتاب علم النفس الاجتماعى .
١٧ ـ المقدمة ص ٣٩٩ .
١٨ ـ المقدمة ص ٤٤٧ .
١٩ ـ المقدمة ص ٤٤٤ .
٢٠ ـ المقدمة ص ٤٤٤ .
٢١ ـ المقدمة ص ٤٤٥ .
٢٢ ـ المقدمة ص ٤٤٦ .
٢٣ ـ المقدمة ص ٤٤٧ .
٢٤ ـ علم النفس والانسان للباحث .